مكتبة البنين
قسم الدوريات

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثالث عشر

١٤١١هـ / ١٩٩٠م

السوفسطائيون
ومنزلتهم في الفكر اليوناني

الأستاذ الدكتور فتح الله خليف
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة

كان الاعتقاد السائد بين الفلاسفة ومؤرخي الفلسفة حتى الربع الأول من هذا القرن هو أن أفلاطون على حق في معركته مع السوفسطائيين. فأفلاطون هو الفيلسوف الحق، المحب للحكمة، أما السوفسطائيون فهم سطحيون، هدامون، مموهون، وهم منبع السفسطة بمعناها الشائع بين الناس اليوم.

ولكن منذ عام ١٩٣٠ رأينا حركة قوية تؤكد أن السوفسطائيين هم أبطال التقدم والتنوير. فكارل پوپر Karl Popper يعتبرهم الجيل العظيم[١] ، أما هڤلوك Havelock فيقرر بأن السوفسطائيين هم الذين أيقظوا الشعور بالتحرر في السياسة اليونانية، وهم الممثلون للفكر الديموقراطي الحر في اليونان الذي عمل على هدمه بكل قواه أفلاطون وأرسطو[٢] .

ورأينا في الوقت نفسه تحولاً مفاجئاً من المحبة إلى الكراهية نحو أفلاطون باعتباره قمة الرجعية والطغيان. ففي عام ١٩٥٣ قال الأستاذ الأميركي ليڤنسون Levinson بأسى شديد : إن أصدقاء أفلاطون اليوم من الأساتذة والطلاب الدارسين له لا يرون فيه سو أنه الجد الأكبر للنازية الألمانية، ولكل حكومات الطغيان في أوروبا التي ساعدت على قيام الحرب العالمية الثانية. لقد كان هدف الحزب النازي الألماني – كما جاء في برنامج الحزب الرسمي – هو إعداد الشباب النازي وتربيتهم على مثال الحراس بالمفهوم الأفلاطوني. بل إن هناك من يرون أفلاطون شخصاً مصاباً بالجنسية المثلية، لا يقوى على كبح غرائزه[٣] .

كذلك تبدو السوفسطائية في نظر شخص معاد لها ومعاصر لنشاطها مثل أرسطوفان الروائي المشهور على أنها علامة على الانحدار، ويرى أن أيام اليونان العظيمة هي أيام الحرب الفارسية حين كان الرجال رجالاً. كانت الشجاعة، والخشونة، والبساطة في الحياة، والمستوى الخلقي الرفيع صفات الأجيال السابقة. أما اليوم، فقد انتهى كل ذلك، لم يعد أحد قادراً على التمييز بين الحق والباطل، وإن استطاعوا التمييز فإنهم يختارون الباطل بغباء، ويحتقرون الحق. فالأجيال الشابه في أيامنا هذه تعشق الرفاهية، وتميل للتخنث والجبن والوضاعة. انظر إلى الدراما، فلن تجد اليوم مسرحيات تؤكد الرفعة والنبالة في السلوك والحياة جميعاً مثلما كان يفعل أسخيلوس. وبدلاً من ذلك لدينا اليوم يوربيدس بمسرحياته عن الزنا والخداع وزواج المحارم، وتعقبه للحقراء والوضعاء وتمويهاته التي لا تنتهي. ويعتقد أرسطوفان أن كل ذلك مصدره اتباع الفكر الملحد، وتعاليم السوفسطائية[٤] .

وفي مقابل هذا فإن فيلسوفاً مثل كارل جويل Karl Joel يرى أن التحول الفكري الذي قاده السوفسطائيون ليس إنحداراً، ولكنه قفزة إلى أعلى، فهم طموحون كالشباب، مقنعون، ثائرون في كل اتجاه، وأن بلاغة جورجياس السوفسائي العظيم نهر متدفق، في عصر تجري فيه دماء شابه، بحيوية وقوة كاسحة[٥] .

واختلاف الناس على هذا النحو في منزلة السوفسطائيين بين محب مفرط ومبغض مفرط يدل على أن السوفسطائيين من أنبه الناس وأبعدهم أثراً في الفكر اليوناني. لقد شهد القرن الخامس قبل الميلاد الذي عاش فيه كبار السوفسطائية من أمثال بروتاغوراس وجورجياس تحولاً عميقاً من النظر في الكون إلى النظر في الانسان. فأصبحنا مع السوفسطائية لم نعد نتساءل عما إذا كانت الأرض مستديرة أم مسطحة، أو أن أصل العالم هو الماء أو النار، إنما اتجهت الفلسفة إلى الاهتمام بالانسان في واقعه المعاش. فتساءلوا عن العدل والظلم، والصواب والخطأ، وبحثوا في نسبية القوانين الخلقية والأعراف والتقاليد والنظم السياسية. فالمعايير الخلقية والقوانين التي فرضتها الجماهير ليست من وحي الآلهة. إنها أشياء فرضها الانسان على أخيه الإنسان، أو على أحسن تقدير وجدت باتفاق بين الناس.

وكشفت السوفسطائية عن الأسس الفلسفية العميقة للقوانين والقواعد الأخلاقية والنظم السياسية التي تنظم حياة الانسان. فعند النظرة السطحية قد نجد فروقاً سياسية بين الملكية والجمهورية، والديموقراطية والأرستقراطية. ثم نتساءل: السيادة لمن: هل هي لرجل واحد، أم لطبقة أرستقراطية. أم للجماهير.

ولكن تحت هذه التساؤلات يوجد مستو من الأفكار أمعن في التجريد والتنظير حول الطبيعة الانسانية: فيصبح التساؤل: هل الناس جميعاً متساوون، وهل وجود الحكام والمحكومين، والأسياد والعبيد، مجرد مسألة مواضعات اجتماعية، أم أنها ترجع إلى اختلاف طبائع البشر؟ والمتأمل في كل هذه المسائل يجد أنها جميعاً ترجع إلى موضوع أعم وأشمل هو طبيعة العالم وموقف الانسان منه.

فالحكومة التي تدعى أنها تحكم بإرادة الآلهة، في مقابل الحكومة التي تنشأ بإرادة البشر، تقابل العالم الذي يخضع أفراده لسلسلة منتظمة من الأوامر والنواهي، تعارض المجموع، الذي تكون بدون سابق ترتيب.

وأوضح مثال على ذلك الحرب الأهلية البريطانية في القرن السابع عشر. ففي الظاهر كانت تبدو صراعاً بين عاملين متنافسين: الملك والبرلمان، من منهما الذي يحكم؟ ولكن يكمن وراء ذلك تساؤل: هل الناس بطبيعتهم منقسمون إلى طبقات؟ طبقة عليا، وطبقة سفلى؟ وهل هذا الانقسام بإرادة الله، وهل هذا الانقسام شائع في الكون كله، وفي الطبيعة. ففي الكون نجد على رأس العالم الله، الحاكم الأعلى، يليه الملائكة، ثم الانسان، وهو بدوره سيد الحيوان، الذي يأتي بعده النبات، وأخس الموجودات جميعاً الجمادات. فالله تعالى هو المنظم للعالم على هذا النحو، وهو الذي أراد أن يكون الوجود مراتباً، عليا ودنيا، وهو الذي أراد أن لا تخرج المجتمعات البشرية عن هذا النظام.

في مثل هذا النظام الكوني الآلهي تجد الملكية المطلقة تأييداً وسنداً، كما يبدو الانقسام الطبقي متسقاً مع طبيعة العالم ونظامه. وبالرغم من أن تعاليم الديانات تؤكد بأن الناس متساوون عند الله، فإن النظام الكوني الآلهي بعكس ذلك تماماً.

فالقضية هنا هي مسألة قياس نظام المجتمع البشري بنظام الطبيعة، وتصور العالم أو الكون باعتباره منظماً تنظيماً إلهياً. وهذا التصور يرجع إلى أفلاطون. وبنفس القوة يتأصل في الفكر اليوناني المعارض الذي نجده عند السوفسطائيين الذين يرون أن النظام الاجتماعي كله من خلق الجماعة. فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم تقوم على هذا المفهوم الذي يوزع الالتزامات بين الطرفين، فالحاكم ملتزم بإزاء المحكومين، وهم ملتزمون بإزاء الحاكم، وذلك كله نشأ بين الناس باتفاقهم وتراضيهم لتدبير الحياة دون تدخل من سلطة عليا، لا تخضع لأي التزام، إلهية كانت أم ملكية. فليس هناك أحكام إلهية، ولكن يوجد فقط تراض إنساني خالص أو اتفاق بين الناس، وأن الناس لهم الحق في معارضة الحاكم وخلعه إذا نقض الاتفاق، كما أن للحاكم الحق في معاقبة المحكومين الذين لا يمتثلون للقوانين المخول بإصدارها(٦).

وفكرة اعتبار القانون مجرد اتفاق عقد بين الناس وبتراضيهم هي أصل فكرة العقد الاجتماعي عند فلاسفة العصر الحديث من أمثال جون لوك وجان جاك روسو، كما أنها هي جوهر النزعة الانسانية في الفلسفة السوفسطائية، والتي لخصها بروتاغوراس أقدم السوفسطائيين وأشهرهم بقوله: الانسان مقياس الأشياء جميعاً.

هذه النزعة الانسانية التي كانت السمة الغالبة على ثقافة العصر، أي على ثقافة القرن الخامس قبل الميلاد يمكن أن نلتمس أصولها البعيدة عن الطبيعيين الأوائل الذين يفسرون العالم تفسيراً مادياً محضاً برده إلى مادة أولى هي أصل الأشياء جميعاً. ففي بداية التفلسف لم تر العقلية اليونانية مبرراً لوجود علة إلهيه أو نصف إلهية للعالم. إن آلهة اليونان على قمة الأولب وإن كانوا لم يخلقوا العالم ولكنهم على الأقل يسيرونه وينظمونه. ولكن نظريات الفلاسفة الطبيعيين لم تترك أي دور لزيوس في سقوط المطر وإحداث البرق والرعد، ولا لبوسيدون في السيطرة على البحر.

لقد كان أثر الطبيعيين الأوائل على المذهب الانساني كبيراً لأنهم لا يفسرون الطبيعة بردها إلى قوة فوق الطبيعة، بما فيها طبعاً الانسان ونظمه السياسية والاقتصادية.

وهناك عامل آخر أنمى النزعة الانسانية في هذا القرن هو إتساع أفق الصلات مع العالم الخارجي بسبب الحروب والرحلات وتكوين المستعمرات. وقد أدى ذلك بوضوح إلى اعتبار العادات وأنماط السلوك التي كانت تعتبر عامة ومطلقة ودستوراً إلهياً، أدى إلى اعتبارها محلية ونسبية. فالعادات التي يعتبرها اليونانيون قبيحة ومحرمة مثل زواج الأخ بأخته تعد عند المصريين من الأمور الطبيعية والفضائل الدينية.

ويقص هيرودوت في تاريخه أحداث منتصف القرن وعادات الناس من الفرس والمصريين والهنود، ويبين اختلافها عن العادات اليونانية.

ولم يعد ممكنا قبول الأعراف والتقاليد بدون فحص لا سيما بعد الحرب الفارسية، وانتصار اليونان على الفرس. فقد ايقنوا أنهم انتصروا على أعدائهم بغير عون إلهي، وأنهم وقفوا وحدهم. فإن سألتهم: كيف كان ذلك؟ قالوا: إنه قانون الطبيعة، الغلبة للأقوى، والهزيمة والدمار للأضعف.

كان اليونان القدامى يعتقدون أن القوانين التي تحكمهم قد أوحى بها الإله أبولو للمشرعين، وأنطق بها كاهنة معبد دلفى. ولكنهم اليوم قاموا بمناقشة القوانين واستبعدوا منها فكرة الوحي بها من أبولو.

أما الرافد الثالث الذي أمد النزعة الانسانية بتيار متدفق في القرن الخامس قبل الميلاد فهوتقدم المخترعات والتقنيات البشرية. فإن ما حققه الانسان في هذا المجال كان موضع تقدير لا يقل عن تقدير ما حققه الانسان في فهم الكون وفي ميدان الفلسفة والعلم. وأشاد الفلاسفة من أمثال انكساغوراس وديموقريطس وبروتاغوراس السوفسطائي وكتاب التراجيديا بهذا التقدم في المخترعات والتقنيات.

فعند سوفوكليس لا توجد إشارة إلى موجودات عليا، فجوقة انتيجون لسوفوكليس تمجد الانسان الماهر، الانسان بمهاراته المتعددة أعظم الموجودات في عالمنا. كان تقدير المهارات عند مثل هؤلاء الفلاسفة والكتاب عظيماً، فأصبحت الخطابة والقراءة والكتابة، والصيد في البحر والبر والجو، والزراعة واستئناس الحيوان واستخدامه في وسائل النقل، والمعمار، والطبخ، والتعدين، وصناعة السفن، وارتياد البحار، والغزل والنسيج،

والصيدلة، والطب، والحساب، أصبحت كل هذه الأنشطة الإنسانية موضع تقدير واحترام[٧]

ومع نمو الديموقراطية في أثينا بدأ أصحاب هذه الحرف المشاركة في الحياة العامة، وخصصوا بعض الوقت للاشتغال بالسياسة والتشريع. وكان من حقهم الكلام والتصويت في الجمعية التشريعية التي تسن القوانين، وتعلن الحرب، وتنشئ المعاهدات.

وهكذا فتحت الديموقراطية الأثينية الطريق أمام كل مواطن يوناني للمشاركة في الحكم، حداداً كان أم نجاراً، صياداً كان أم نساجاً، غنياً كان أم فقيراً، فإن آراء الناس جميعاً في السياسة جديرة بالاعتبار.

فكيف يمكن أن يقال: إن الحضارة اليونانية كانت تحتقر أربان المهن اليدوية والحرف والصناعات! وكانت تمجد فكرة العلم للعلم بصرف النظر عن مدى نفعه.

هذه الأحكام العامة وقرت في نفوسنا أمداً طويلاً، ثم تبين أخيراً لمؤرخي الفلسفة أنها من اختراع أفلاطون وأرسطو. يقول الأستاذ هڤلوك Havelock أن تاريخ اليونان السياسي قد تم تدوينه في العصر الحديث كما أراده أفلاطون وأرسطو[٨] .

كذلك نحن لا نكاد نعرف شيئاً عن السوفسطائيين إلا ما أراد أفلاطون أن نعرفه عنهم. جاء أفلاطون بعد بروتاغوراس وجورجياس أشهر السوفسطائيين بستين عاماً ليكتب عنهم خمس محاورات كاملة اختار لها عناوين تحمل أسماءهم. فلدينا محاورة بعنوان بروتاغوراس ومحاورة بعنوان جورجياس، ومحاورتان بعنوان هبياس وهو من أكبر سوفسطائي القرن الرابع الذين أدركهم أفلاطون، ومحاورة بعنوان سوفيسطوس. هذا فضلاً عن مناقشاته المتصلة لآرائهم في محاورة فيدروس وتيتياتوس ومينون. فكأن مذهب أفلاطون ليس سوى رد فعل لآراء السوفسطائيين ومذهبهم.

قبل أن نمضي في عرض آراء السوفسطائية نقف قليلاً عند لفظ سوفسطائي لنتعرف على حقيقة مفهوم هذا اللفظ وماصدقه عند اليونان قبل أن يلحقه التحقير على أيدي أفلاطون.

كلمة سوفيسطوس مأخوذة في الأصل من الكلمة اليونانية Sophia أو Sophos وتترجم بالحكمة أو بالحكيم. والحكمة معناها الأصلي عند اليونان هي المهارة في حرفة ما. فنقرأ في إلياذة هومير أن المثال والعراف وسائق العربة الحربية ومرشد السفن كلاً منهم Sophos أي حكيم في حرفته وصنعته. فالحكيم أو الـ Sophos هو الذي يعرف أشياء نافعة. وفي هذا السياق استخدمت كلمة Sophos أيضاً للاشارة إلى المعارف العقلية والروحية ومنها جاءت كلمة فلسفة ومعناها فيلاسوفيا أي محبة الحكمة. وبهذا المعنى أطلقت كلمة سوفوس Sophos على الحكماء السبعة، ويذكر أن طاليس آخر هؤلاء الحكماء السبعة، وأول الفلاسفة. وكانت حكمتهم عبارة عن أمثال مأثورة، أو أقوال قصيرة، تنصب على تدبير أمور الحياة العملية.

ولم يكن هناك فرق بين لفظ Sophos ولفظ Sophist ، فاللفظان متساويان عند هيرودوت الذي يطلق على فيثاغورس وسولون ومؤسسي ديانه ديونسيوس لفظ سوفسطائي، ويقول: إن كل سوفسطائيي اليونان زاروا عاصمة ليديا. ونعرف من أرسطو وإشوكرات بطل محاورة فيدون أن لفظ سوفسطائي أطلق على الحكماء السبعة. كما نعلم من يوربيدس أن لفظ سوفسطائي أطلق على الشعراء والمغنيين والموسيقيين والكتاب.

فالسوفسطائي إذن هو من يمتلك مهارة خاصة أو خبرة خاصة أو المتقن لحرفة ما يقدمها ويمنحها ويعلمها لتلاميذه أو صبيته ومن يأتمنهم على أسرار حرفته. من كل ما تقدم نرى أن لفظ سوفسطائي متعدد المفهوم واسع الماصدق، لكنه لا يراد به في أي مفهوم معني مخجل أو قبيح[٩] .

والإجماع منعقد بين مؤرخي الفلسفة على أن لفظ سوفسطائي قد لحقه التحقير على أيدي أفلاطون وأرسطو. فالسوفسطائي عندهم معلم مأجور يتصيد الأثرياء من الشبان، ويجمع الثروة من تعليم الحكمة الباطلة. أي أن السفسطة عندهم هي التمويه والخداع، وهذا هو المعنى الشائع بين الناس اليوم. أما سقراط فقد كان يرى أن المعلم المأجور كالبغي، إذ ليس هناك فرق عنده بين أن يبيع الواحد فكره للآخرين أو يبيع جسده. كذلك فإن المعلم الذي يتقاضى أجراً يتنازل عن حريته، لأن عليه أن يعلم كل من

يدفع له، وكل من يقدر على الدفع، بينما يقول سقراط إنه حر في مناظرته وتعليمه، يختار من يناظره ويبصره بالحكمة. إن الحكمة في رأي سقراط يجب أن تكون متاحة بحرية بين الأصدقاء. ولم تكن الحكمة هي المتاحة بين الأصدقاء فقط، ولكنه الايروس أيضاً الذي هو أساس الجنسية المثلية المتسامية بين سقراط وأفلاطون

ويتناول إشوكرات بطل محاورة فيدون التغير الذي طرأ على لفظ سوفسطائي فيقول : إنه ليحزنني أن أرى التمويه والخداع أفضل من الفلسفة. كان لفظ سوفيسطوس يطلق على حكمائنا السبعة، فأصبح في أيامنا يطلق على غير الشرفاء منا. من كان في الماضي يتوقع ذلك. لقد كان كل الرجال فخورين بهذا الاسم. كان أجدادنا يجلون أولئك الذين يسمون سوفيسطائية ويطلبون رفقتهم ومودتهم. وأعظم دليل على ذلك هو اختيارهم لسولون – أول مواطن أثيني يحمل لقب سوفسطائي – ليحكم المدينة(١٠) .

أما موقف جمهور الأثينيين من احتراف السوفسطائية للتعليم فإنه يدعو للعجب والدهشة. فنحن تعودنا أن ننظر للتعليم على أنه مهنة محترمة لكسب العيش، ولم يكن هناك عند اليونان أي مأخذ على ذلك، أي أن يعيش الانسان من كسب قوته من التعليم. وكان أصحاب الحرف من الشعراء والفنانين، والأطباء والنحاتين، والمهندسين والنجارين وسائر أرباب الحرف والصناعات يتقاضون أجوراً لمزاولتهم حرفهم وفنونهم، أو لتعليمهم تلك الحرف للآخرين. كذلك لم تعرف اليونان عن السوفسطائية أنهم كونوا ثروات، أو أنهم كانوا يعيشون عيشة مترفة. بل إن جورجياس لم يتزوج، ولم تكن له أي أعباء عائلية. وكان يعيش عيشة متواضعة.

يلوح أن تعاليم السوفسطائية هي التي أثارت جمهور المحافظين من أمثال أفلاطون وأرسطو ضدهم.

سئل بروتاغوراس : ماذا تعلم تلميذك؟ قال: العناية بأموره الشخصية، ليكون أفضل من يدبر منزله، وأمور دولته، ليصبح قوة حقيقية في الدولة كمتكلم وكرجل دولة. وفي محاورة مينون جاء على لسان سقراط أن السوفسطائيين هم أفضل الناس لتعليم الحكمة التي تؤهل المتعلم لإدارة ضيعة، وحكم دولة.

كانت السياسة إذن هي هدفهم الأعظم في التعليم ومحور اهتمامهم. والبلاغة أو فن إجادة العبارة والكلام هي الطريق إلى النجاح في السياسة. سئل جورجياس، من هو السوفسطائي؟ قال: إنه المهيمن على الفن الذي يخلق المتحدث الذكي. فأتقن السوفسطائية فن صناعة الكلام. وزاولوه، وعلموه، وألفوا فيه الكتب. وليست البلاغة هي الفصاحة في القول، ولكنها الاستخدام الصحيح للغة بوجه عام، وتقدير قيمة الكلمة وأثرها.

كتب جورجياس مقالة عن طبيعة الكلمة قال: إن الكلمة حاكم شديد البأس مستبد The word is a mighty despot. لها من القهر ما يفوق قهر الطاغية، ولها سلطة مطلقة على العقل، إن قوتها لا تقاوم. وعلي ذلك فلو زيّنا للمرأة الزنا، وزنت، فإنها تكون كالمرأة التي اغتصبت، لا ذنب لها.

إن الكلمة يمكنها أن تفعل خيراً عظيماً، وتزيل خوفاً وحزناً، وتشيع فرحاً ومرحاً، وتمكنك من إقناع المحلف في المحكمة، وعضو الشيوخ في مجلس الشيوخ. يقول جورجياس: هذا ما نريد تعليمه للناس، وليس شيئاً غير ذلك. ولا لوم علينا لو أن التلاميذ الذين يتعلمون منا استخدموا علمهم في غايات شريرة، مثلما لا يلام معلم الملاكمة لو أن تلميذه ذهب إلى والده وضربه ضربة قاضية.

إن البلاغة هي علم الوسائل وليست علم الغايات، وأن تعليمها له آثار مختلفة على التلاميذ بحسب سلوكهم وأخلاقهم.

فالبلاغة هي طريقنا للنجاح في السياسة، والنجاح في التشريع وسن القوانين لخير البشر[١١] . كان الاعتقاد السائد عند اليونان قديماً هو أن القوانين من صنع الآلهة، وأن عدم الامتثال لها كفر، وأن الانسان الذى يتولى التشريع، وسن القوانين فإنه يفعل ذلك بإذن الآلهة وبوحي منهم. فالإله أبولو هو الذي أملى على ليكورجوس دستور اسبرطه بكل تفاصيله في مدينة دلفى. ثم عاد الناس بعد ذلك ليقولوا بأن ليكورجوس هو الذي وضع دستور اسبرطه، ثم ذهب إلى دلفى يطلب موافقة الآلهة عليه. ثم جاء هيرودوت ليقول بأن ليكورجوس استمد دستوره من دستور كريت، وأن رستور كريت بدوره من وحي الإله زيوس.

أما في القرن الخامس فإن الاعتقاد الذي ساد بين الكتاب والشعراء والفلاسفة وعلى رأسهم السوفسطائيين هو أن القوانين كلها من صنع البشر، وأنها وجدت لمواجهة متطلبات الحياة العملية، وأن القوانين ليست دائمة ولا مقدسة، وأن الأصل في القوانين هو الاتفاق بين الناس على تنظيم حياتهم وفقاً لرغباتهم. ففي رأي بروتاغوراس لا يستطيع الانسان أن يحيا في مدينة دون مراعاة حقوق الآخرين. وفور أن نلتفت إلى أن للآخرين حقوقاً تنشأ المجتمعات السياسية. فحاجة الناس إلى العدل وكبح جماح النفس هي أصل القوانين. إن تطور المجتمعات من حالة البداوة حيث كان الكل في حرب ضد الكل، وحيث كان كل واحد لا يلتفت إلا لنفسه قد حملت الإنسان - حين أدرك استحالة حياته على هذا النحو - على كبح جماح غرائزه من أجل المواجهة الجماعية لعدوان الطبيعة عليه. ومادامت القوانين نتيجة اتفاق، فإن المواطنين ليسوا ملزمين بطاعتها في كل الظروف. ولكن في الظروف الملائمة تصبح طاعة القانون واجبة.

يقول يوربيدس: ليس للمدينة من عدو مثل طاغية يحكم وحده، ويضع القانون في خدمته وحوزته، ولا يسمح بقوانين عامة مشتركة. لنفرض وجود سوبرمان قُدّ من صلب، لا إحساس له، فإن مثل هذا السوبرمان لا يمكن أن يستمر في طغيانه بدون خوف، لأن كل الناس سيصبحون أعداء له، ولو استمسكوا بالقوانين واتحدوا، فإن الغلبة ستكون لهم. فليست قوة الطاغية وعنفه هما اللذان يمكنانه من السلطة كما يعتقد معظم الناس، ولكنها غفلة المواطنين أنفسهم، فإن المدينة التي تفقد احترامها للقانون والنظام هي التي تسقط في يد الطاغية.

فالثقة المتبادلة بين الناس ثمرة من ثمرات طاعة القوانين واحترامها. وفي ظل مثل هذه الثقة، تزدهر التجارة، وتثرى البلاد، وينعم الناس بهدوء البال، والحرية في القول والعمل.

وكل الناس عند السوفسطائيين سواسية أمام القانون. فالمساواة هي العروة الوثقى بين الناس، تربط الصديق بالصديق، والمدينة بالمدينة، والحليف بالحليف. فعند بروتاغوراس المساواة بين الناس عدل، والعدل هو أساس النظام في المدينة، وهو الذي يخلق روابط الصداقة والوحدة. ويؤكد المشرعون على معنى الصداقة وأهميته في المدينة

باعتباره أساس العدل، ذلك لأن الأصدقاء يراعون العدل مع بعضهم، من المستبعد أن ينشأ الظلم بين الأصدقاء. فالعدل والصداقة عند السوفسطائيين شيء واحد.

ومن العدل أن تتوزع الثروة بقدر متساو بين الناس. فينادي السوفسطائيون في القرن الخامس قبل الميلاد بإعادة توزيع الثروة، لأن تضخم الثروات في أيدي قلة من الناس هو أصل البلاء، وأهم دوافع الإجرام. وكانت اليونان قديماً تعتبر الثروة عطاءً إلهياً، وأننا مكلفون برعايتها، والحفاظ عليها، وتنميتها، فهي وديعة إلهية لا نأخذها معنا عند الموت، وللآلهة أن يستردوها وقتما يريدون. ومادامت الثروة عطاءً إلهياً فليس لبشر أن يعترض على مشيئة الآلهة، أو على ثراء الأثرياء وفقر الفقراء.

أما مشكلة الرق فلم تحظ من السوفسطائيين سوى ببعض العطف على العبيد. وكل ما ورد عنهم على لسان أحد تلاميذ جورجياس أن الله خلق الناس أحراراً، ولم تجعل الطبيعة من الانسان عبداً. كانت العبيد في اليونان تقوم بالخدمة في المنازل، والعمل في المصانع والمناجم، وكان الأذكياء منهم يقومون بأعمال السكرتارية والصرافة. وكانوا يتمتعون في أثينا بحرية الكلام والملبس، ويصعب أن تميز بينهم وبين الأحرار في شوارع أثينا. ولكن يبقى بعد ذلك أن العبد يباع ويشترى.

هذه هي اهتمامات السوفسطائيين وتساؤلاتهم التي أثاروها في السياسة، ونظم الحكم، وفلسفة القوانين(١٢) .

أما في المعرفة فإن الفلسفة التي بدأها بارمنيدس وطورها أفلاطون قد لعبت دوراً هاماً في غرس الثقة المطلقة في قوى العقل الإنساني، تلك الثقة التي تقوم على أن العقل الانساني والإلهي متماثلان. لقد رفض بارمنيدس الادراك الحسي كلية. أما أفلاطون فلم ير في الادراك الحسي سوى أنه نقطة بدء يتركها العقل وراء ظهره فوراً. إن المعرفة تستحق أن تسمى معرفة لو كانت مطلقة وعامة Absolute and universal ، ولكي نصل إلى مثل تلك المعرفة، فلا بد من التعالي عن التجربة، مخترقين حجاب الادراك الحسي، وموغلين فَي الحقائق الكامنة في العقل كمون النار في الحجر، فالعقل ملكة فطرية، ونور داخلي، وهو كاف بذاته، بمعنى أن الحدس العقلي يمكن أن يعطينا، ويوفر لنا فهماً دقيقاً للحقائق الكونية.

ولقد ظلت أفكار أفلاطون في المعرفة مهيمنة على العقل البشري إلى أن جاء فرنسيس بيكون وأدار دفة المعرفة إلى اتجاه آخر. فبيكون يعد بحق هو المؤسس الحقيقي للطرق التجريبية، وللفكر التجريبي. وهو على وعي تماماً بالتيارين المتعارضين في المعرفة: التجريبي والعقلي. والتعارض بينهما مثل التعارض الذي كان قائماً من قبل في العالم اليوناني بين ديموقريطس الذي يمثل الفلسفة التجريبية، وبين أفلاطون الذي يمثل الفلسفة المثالية.

كان ديموقريطس يرى أن العالم بكل ما فيه من أجسام وأنفس وآلهة يتألف من ذرات مادية، وأن الكل يخضع للقانون العام، أي للفساد بعد الكون، واستئناف الدور، على حسب ضرورة مطلقة، ناشئة من المقاومة والحركة والتصادم دون أية غاية. وليس هناك أي قوة خارجة عن العالم المادي تتدخل في شئون العالم وقوانينه. والمعرفة الحقة في العقل، ولكن العقل خاضع تماماً لمعطيات الحس والتجربة.

وقد تبنى السوفسطائيون وعلى رأسهم بروتاغوراس صديق ديموقريطس هذه الآراء التي تصدى لها وعارضها أفلاطون وأرسطو.

والخلاف بين المثالية الأفلاطونية والتجريبية السوفسطائية هو جوهر الصراع بين التيارين الموروثين في المعرفة عند اليونان.

إن العلم يقوم على افتراض مقولة أساسية، هي أن هناك حقيقة موجودة، وأنه يمكن اكتشاف تلك الحقيقة. ولكن أي ضمان عندنا لذلك الاعتقاد. فمعايير الصواب والخطأ، والحق والباطل، والخير والشر تختلف من شخص إلى شخص ومن بلد إلى بلد، وتتغير من لحظة إلى أخرى.

إن المسألة التي شغلت بال السوفسطائيين هي طبيعة الحقيقة وعلاقتها بالظاهرات الحسية، أو بعبارة أخرى: العلاقة بين الحقيقة والظاهر. وقد ظلت هذه القضية هي الأساس المكين، لكل الفلسفات المتعارضة.

فمن جهة، لدينا مجموعة من الآراء المعقدة التي يمكن أن نوجز أساسها في مصطلحات مثل : الأمبيريقية Empiricism والوضعية Positivism ، والظاهرية

Phenomenalism ، والفرديـــــة Individualism ، والنسبيـــــة Relativisim والإنسانيـــة Humanism .

فما يظهر لنا في الوجود يتغير من لحظة إلى أخرى، ومن شخص إلى آخر، وهؤلاء أنفسهم هم الذين يعبرون عن الحقيقة الوحيدة. وهذا الموقف في الأخلاق يعني أن الأخلاق مجموعة من القواعد الآنية العملية، لا شأن لها بقواعد عامة أو مبادىء دائمة. هذه القواعد الآنية العملية أو المبادئ يمكن أن تظل صحيحة لو كانت وحياً من عند الله، أو معتقدات دينية، ولكننا في هذه الحالة لا نستطيع مناقشتها بأدلة وضعية.

مثل هذه المسائل الآنية المتغيرة، يعارضها الاعتقاد في مبادئ عليا مطلقة، ودائمة، وغير متغيرة، ولا تخضع لأي تأثير حسي، أو إدراك حسي، أو أهواء فردية. ويمكن أن نستخدم في وصفها المصطلحات الآتية : مطلقة Absolute ، مثالية Ideal ، متعالية Transcendental . وهذا الاتجاه نجد أصوله في تعاليم سقراط، ولكنه ترعرع بعد ذلك في نظرية المثل عند أفلاطون.

أما الاتجاه الأول، أي الاتجاه الأمبيريقي أو الوضعي أو النسبي أو الانساني فقد لخصه بروتاغوراس بقوله المشهور: الانسان مقياس الأشياء جميعاً، مقياس النفع والضر، والخير والشر، والعدل والظلم، والحق والباطل.

وبعد، هل نعود مرة أخرى إلى كارل جويل لنقول معه إن التحول الفكري الذي قاده السوفسطائيون ليس إنحداراً، ولكنه قفزة إلى أعلى، فهم طموحون كالشباب، مقنعون، ثائرون في كل اتجاه، وأن بلاغة جورجياس السوفسطائي العظيم نهر متدفق، في عصر تجري فيه دماء شابة بحيوية وقوة كاسحة(١٣) .

أم نقف الآن مع الفلاسفة الذين أطلقوا على هذه الفترة، التي سادت فيها تلك الأفكار : عصر التنوير في اليونان: Enlightment in Greece ثم في أوروبا بعد ذلك بثلاثة وعشرين قرناً، أي في القرن الثامن عشر، والتي بدأت في ألمانيا بفيلسوفها العظيم كنط الذي نحى الميتافيزيقا من مجال المعرفة الإنسانية، وعلق فعل العقل على ما يتلقاه من إمدادات حسية.

كانت مهمة الفلسفة إذن عند السوفسطائيين في القرن الخامس قبل الميلاد ثم عند كنط في العصر الحديث: هي التنوير. وقد عبرت فلسفة التنوير عن نفسها في اتجاهين:

أولاً : التصميم على الاعتقاد فقط في كل ما هو معقول، ومقبول فكرياً، ثم الميل نحو التوحيد بين العقل والتجربة وتقدم العلوم الطبيعية.

ثانياً : الاهتمام الحقيقي بالانسان، وإصلاح الحياة الإنسانية وتحسينها، والقضاء على العنف والضرر، وكل أشكال الاستغلال، وتأسيس حياة الإنسان على أسس إنسانية خالصة، نقية من كل شوائب الظلم والقهر والاستعباد، وأسس نسبية، لأن الأسس المطلقة تضمر سلطة فوقية هي أصل القهر، والعنف، وكل الشرور.

* * *

مراجع البحث ومصادره

أنظر :

1 - Popper, Sir K., The open Society and its Enemies, Vol. 1, 5th. ed,. London 1966.

2 - Havelock, E. A, The Liberal Temper in Greek Politics, London, 1957.

3 - Levinson, R. B., In Defence of Plato, Cambridge, Mass., 1953.

4 - Guthrie, W. K. C. A History of Greek Philosophy, Vol. 3, P. 49, Cambridge University press, 1975.

5 - Ibid, p. 49.

6 - Ibid, pp. 3-13.

7 - Ibid, pp. 14-26.

8 - Havelock, E.A., The Liberal Temper in Greek Plitics, pp. 15-29.

9 - Guthrie, pp. 27-34., Burnet, Greek Philosophy, pp. 107-110, macmillan, London, 1962.

10 - Ibid, pp. 27-34.

11 - Ibid, pp. 35-48.

12 - Ibid, pp. 55-79.

13 - Ibid, p. 49.